الفصل الأول

قيام الدولة العثمانية

أصل الأتراك العثمانيين:

دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي كقبيلة من القبائل التركية التي كانت على فترات متباعدة حيناً ومتقاربة حيناً آخر، تنزح من مناطق الاستبس في آسيا متجهة غرباً نحو الأناضول.

والواقع أن التاريخ المبكر للعثمانيين يحوطه الغموض وتندس فيه روايات أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق. وعلى الرغم من أن المؤرخين استقوا هذه الروايات من الحوليات العثمانية القديمة، فإنهم لا يزالون على خلاف عميق حول قيمتها التاريخية. ويقسم المؤرخون إلى فريقين.

١ ـ فريق يلقي على تلك الروايات ظلالاً كثيفة من التشكيك فيها.

٢ ـ فريق يعتبر تلك الروايات حقائق لا تشوبها شائبة من ارتياب، تأسيساً على أنها دونت بمعرفة أناس عاصروا أحداثها[1].

(١) د/أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني ط ٢، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٠ ــ ١٥.

وعلى العموم، فإن إحدى هذه الروايات تقرر أن العثمانيين ينتمون إلى قبيلة من قبائل الغز التركية هي قبيلة قابي. وقد خرجت هذه القبيلة من أواسط آسيا متجهة إلى الغرب تحت قيادة أرطغرل، ووقفت هذه القبيلة إلى جانب السلطان علاء الدين الأول، سلطان دولة الروم السلاجقة، إذ انضمت إلى جيشه ضد جيش أعدائه، مما أدى إلى انتصاره عام (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م). فما كان من السلطان علاء الدين الأول إلا أن أعطى تلك القبيلة التركية منطقة تابعة له في شمال غرب الأناضول يطلق عليها «سكود» على الحدود البيزنطية السلجوقية، مكافأة لها على هذا الصنيع كما حصل رئيس القبيلة (أرطغرل) على لقب «محافظ الحدود»[١].

ولكن أرطغرل لم يقنع بمهمة المحافظة على الحدود، بل شرع يهاجم باسم السلطان علاء الدين الأول ممتلكات الدولة البيزنطية في الأناضول، وضم إلى المنطقة التي يحكمها مدينة أسكي شهر[٢].

ولما مات أرطغرل عام (٦٨٧هـ / ١٢٨٨م)، خلفه في حكم الإمارة ابنه عثمان الذي سميت باسمه الأمة والدولة. وسرعان ما نمت هذه الإمارة حتى أصبحت امبراطورية مترامية الأطراف امتدت أقاليمها في آسيا وأوروبا وإفريقيا، وغدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدها التاريخ والتي كان لها شأن كبير في نشر الإسلام في أوروبا والدفاع عن المسلمين ضد الغزو الصليبي[٣].

---

(١) محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة د/أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٦٧، ص ١١٩ ــ ١٢٦.

(٢) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ١٥١٦ ــ ١٩١٦، دمشق ١٩٧٤، ص ٢٦ ــ ٢٨.

(٣) د/عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ط ٢، القاهرة ١٩٨٠، ص ٣٣ ــ ٣٤.

نسب آل عثمان:

اختلف المؤرخون حول نسب العثمانيين، فمن قائل بأنهم ينتمون إلى الحجاز، وأن جدهم عثمان فر إلى قرمان، وكان شجاعاً قوياً، فصار في خدمة السلاجقة، فسار على طريقتهم وتكلم لغتهم، وصار له أعوان وأتباع وعساكر[١].

وذكر بعض المؤرخين أن العثمانيين ينتمون إلى أبي مسلم الخراساني وينتسبون إليه[٢]، وقيل إن آل عثمان أصلهم من الجراكسة من أولاد يافث بن نوح[٣]. أما المؤرخون الأتراك، فإن بعضهم ينسبونهم إلى الغز فقط، والبعض الآخر ينسبهم إلى قبيلة «قابي» كما ذكرنا آنفاً. لكن قسماً من المؤرخين الأتراك يؤكدون أن النواة الأولى للدولة العثمانية «عنصر غزي» أي تركماني لا يختلف عن أغلبية الترك الذين وفدوا مع السلاجقة[٤].

وتتفق الروايات على أن سليمان شاه جد السلطان عثمان، كان سلطاناً على «ماهان» وهي بلاد قرب بلخ في شمال فارس، فلما خرج جنكيز خان سلطان المغول، للغز واكتسح تلك البلاد، وخربها. وقضى على مملكة خوارزم وتفرق أهلها في تلك البلاد والممالك التي في غربها، فخرج سليمان من بلاد ماهان بخمسين ألف مقاتل من التركمان والجراكسة إلى أرض الروم، ومر بديار حلب وغيرها، وغرق في الفرات فأخرجوه منه ودفنوه أمام قلعة جور (قلعة جبير ويطلق عليها ترك مزار)،

---

(١) محمد بن أحمد ابن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور حـ ٥ ط ٢ القاهرة ١٩٨٢ ص ٣٦٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٦٥.

(٣) الأميرالاي إسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، بيروت ١٩٨٨، ص ٨.

(٤) محمد فؤاد كوبريلي، المرجع السابق، ص ١١٨.

وتفرق من كان معه من التركمان والجراكسة، وتفرقت ذراريهم في تلك الأرض والبلاد[1]. ثم قاد أرطغرل المسيرة بعد أبيه حتى حصل على مكافأة السلطان السلجوقي علاء الدين بقطعة الأرض التي كانت نواة للدولة العثمانية.

الوضع الديني والعسكري والسياسي للعثمانيين:

لقد تحدد الوضع الديني والعسكري والسياسي للأتراك العثمانيين منذ عهد الأمير عثمان على النحو التالي:

١ ـ اعتنق الأمير عثمان الدين الإسلامي وتبعه الأتراك العثمانيون. وكانت عقيدتهم الدينية قبل ذلك غير واضحة تماماً، ويحتمل أنهم كانوا في حالة تحول من الوثنية أو من عقائد أخرى إلى الإسلام. وعلى كل حال، فإن صلاتهم الوثيقة بدولة الروم السلاجقة في الأناضول ـ وهي دولة إسلامية ـ كانت عاملًا هاماً ساعد على اعتناقهم الدين الإسلامي في سرعة وسهولة. وعلى ذلك، فقد تحدد الإسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك العثمانيين من عهد الأمير عثمان، وسار عثمان في حكمه على هدى إيمان عميق وبساطة في الدين، وكان متحمساً لعقيدته الدينية، وأخضع حكمه لمشورة الفقهاء المسلمين. وكانت العدالة أبرز ما تميز تصرفاته في عصر امتلأ بالظلم والعنف. وكان للإسلام أثر كبير في مستقبل العثمانيين، إذ هيأ لهم وحدة العقيدة وعبأهم بشعور ديني دافق جعلهم متحمسين للإسلام. واجتمعت إلى هذه العاطفة الدينية المتأججة روح عسكرية طاغية، بحيث غدت سمة بارزة في الأتراك العثمانيين. وقد استمدوا هذه

(١) أحمد بن محمد الحموي، فضائل سلاطين بني عثمان، تحقيق د/محسن سليم، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٧ ــ ١٨.

الروح العسكرية من بيئتهم الأصلية في سهول آسيا، ثم عمل السلاطين على تعميقها في نفوسهم فلازمتهم طوال تاريخهم[1].

٢ ـ أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته، بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطاً بعيداً على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة، مما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى وإعدادها للدور الضخم الذي قامت به بعد ذلك[2].

٣ ـ إن أهم دولتين كانتا في آسيا الصغرى، وهما الدولة البيزنطية ودولة الروم السلاجقة، كانتا قد وصلتا إلى حالة إعياء شديد نتيجة الصراع الطويل الذي خاضته كل منهما ضد الأخرى، ونتيجة تعرض الدولة البيزنطية للغزو اللاتيني (الحملة الصليبية الرابعة) ونتيجة تعرض دولة الروم السلاجقة للغزو المغولي. فكان في شبه جزيرة الأناضول فراغ سياسي، وكانت الأوضاع السياسية مهيأة لظهور دولة تملأ هذا الفراغ السياسي على أنقاض الدولتين المتداعيتين[3].

٤ ـ إن نشأة الإمارة العثمانية في الشمال الغربي للأناضول على حافة العالم المسيحي ـ وهو ما يسمى بدار الحرب ـ وعلى حافة العالم الإسلامي ـ وهو ما يسمى دار الإسلام ـ قد فرضت عليها سياسة حربية معينة، ذلك أن هذه الإمارة كانت على الحدود والثابت في تاريخ الأناضول أن الإمارات التي نشأت على الحدود كانت أوفر نصيباً من عوامل النمو والتطور من إمارات الداخل، وأنه لم يكن في استطاعة هذه الإمارات الداخلية أن تتطور وتنمو بنفس السرعة التي تطورت ونمت بها

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٣٦ ــ ٣٧.

(٢) نفس المرجع.

(٣) د/سعيد عاشور، أوربا في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٨١، ص ٦٥.

إمارات الحدود. واستطاع الأمير عثمان أن يحرز انتصارات عسكرية على البيزنطيين[١]. وكان من حظ عثمان أن أغار المغول سنة ١٣٠٠م على دولة الروم السلاجقة في آسيا الصغرى، وحدث ما كان متوقعاً، إذ زالت دولة الأتراك السلاجقة وتوفي السلطان علاء الدين الثالث سنة ١٣٠٧م، وأعلن عثمان استقلاله مقتدياً بغيره من الأمراء الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر أميراً أسس كل منهم حكومة مستقلة على أنقاض دولة الروم السلاجقة أو الأتراك السلاجقة. وتلقب عثمان بلقب سلطان ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية[٢].

ولقد أيقن عثمان أن عشيرته التركية بتعدادها القليل لن تستطيع بمفردها تأسيس الدولة التي يرتجى تكوينها ممتدة الأطراف مهيبة الجانب. فرسم سياسته على أساس مصاهرة الدول المجاورة واستقدام الرقيق من مختلف البلدان واستخدام المغامرين الذين تستهويهم الشهرة في ميادين القتال. فاختار عثمان لنفسه زوجة مسيحية من قيليقيا، وزوج ابنه من فتاة مسيحية[٣].

ومضى عثمان يوسع رقعة بلاده، واستولى على بعض مدن كانت أهمها بروسة، سمع بفتحها وهو على فراش الموت سنة (٧٢٧هـ / ١٣٢٦م)، وكان ابنه أورخان على رأس القوات التي زحفت عليها وأوصى عثمان بأن ينقل رفاته إلى بروسة في كنيسة القصر التي حولت فوراً إلى مسجد، وأصبحت بروسة عاصمة جديدة للأتراك العثمانيين في سلسلة العواصم التي انتقلوا إليها عبر تاريخهم من قونية وانتهاء باستانبول[٤].

---

(١) د/سيد الدقن، دراسات في تاريخ الدولة العثمانية، القاهرة ١٩٧٩، ص ١٠ ــ ١٥.
(٢) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٢ ــ ١٤.
(٣) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) حـ ٨ دمشق ١٩٨٦، ص ٦٢.
(٤) محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ص ١٨٠ ــ ١٨١.

والخلاصة أن التحركات الحربية التي قام بها العثمانيون في هذه المرحلة الأولى من تاريخهم كانت نتاج عدة عوامل، أهمها:

أ ـ الروح الدينية الجياشة.

ب ـ الطبيعة العسكرية الصارمة.

جـ ـ الموقع الجغرافي للإمارة العثمانية في الشمال الغربي للأناضول.

د ـ الأوضاع السياسية في المنطقة المحيطة بالأتراك العثمانيين[1].

والواقع أن هذه التحركات الحربية كانت بداية لسياسة حربية نشيطة حرص الأتراك العثمانيون على الالتزام بها، وانتشروا في بقاع أوربا وآسيا وإفريقيا فاتحين.

خصائص الفتح العثماني في أوروبا:

كان الغزو العثماني العسكري لأوروبا هو آخر غزو إسلامي لأوروبا المسيحية في التاريخ الحديث والمعاصر. وقد بدأ هذا الغزو في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وبلغ ذروته في القرن السادس عشر. واستمر على فترات متباعدة في القرن التالي. ومضت عمليات الغزو العثماني في أوروبا ثم أوغلت فيها في وقت كانت فيه موجة الإسلام تنحسر عن الأندلس بسقوط غرناطة في أيدي الإسبان في سنة (٨٩٨هـ / ١٤٩٢م)، وعلى ذلك فالخسارة التي تعرض لها الإسلام في غرب أوروبا، قام الأتراك العثمانيون بتعويضها على نحو من الأنحاء في شرق أوروبا وفي وسطها[2].

وهناك بعض ملاحظات عن خصائص الغزو العثماني في أوروبا نوجزها فيما يلي:

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٠٩ ــ ٤١٠.

(٢) إسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٦ ــ ١٢.

١ ـ لم يتم الغزو العثماني لوسط أوروبا في ظروف مواتية للعثمانيين، لأنه في الوقت الذي انطلق فيه العثمانيون غزاة فاتحين في قلب أوروبا ـ وبخاصة في القرن السادس عشر ـ كانت الدول الأوروبية في مجموعها تنعم باليقظة القومية وتنفض عنها معالم الحياة الاقطاعية التي سادت في العصور الوسطى. ودعمت الملكيات نفوذها وظهرت الطبقة الوسطى دعامة قوية للملوك تمدهم بالأموال لإنشاء الجيوش الدائمة وتزويدها بالعتاد والسلاح، وفي مقدمتها سلاح المدفعية الثقيلة وإنشاء الأساطيل البحرية الرهيبة. وكانت القوات البرية والبحرية قد نبذت ولاءها للأمير الاقطاعي، وأصبحت تخضع خضوعاً مباشراً للملك الذي غدا رمز الدولة الموحدة المركزية القوية الحديثة. كما أخذت هذه الدول تركن إلى التكتل السياسي والتنظيم الاقتصادي، وتتزود بأسباب النهضة التي أشرفت على أوروبا منذ القرن الرابع عشر[1].

وعلى الرغم من هذه الملابسات غير المواتية بالنسبة للعثمانيين، فقد وقفت الدول الأوروبية من الغزو العسكري العثماني موقف الدفاع عن كيانها وعن دينها، وانهارت مقاومة أوروبا تحت مطارق العثمانيين الذين انتقلوا من نصر إلى نصر، وقد ملأتهم الانتصارات المتعاقبة ثقة في قوتهم، وأصبح الغزو العسكري شغلهم الشاغل، فتوغلوا في قلب القارة الأوروبية، وفتحوا جبهة بحرية في حوض البحر المتوسط، حيث انتزعوا أهم جزره: رودس وقبرص وكريت وغيرها.

وأمام هذا العملاق العثماني الذي لا يخبو له نشاط حربي، راحت أوروبا تحتمي بالفكرة الصليبية تعمل على استمرار ضراوتها وعنفها، وتكونت المحالفات الدولية ضد العثمانيين تغذيها وتدفعها روح

(١) محمد فؤاد كوبريلي، المرجع السابق، ص ١١٨ ــ ١٢٠.

صليبية وتباركها البابوية. وتصدى الأتراك لهذه الحملات ونقلوا جبهة القتال إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط، حيث كان الإسبان قد أشعلوا حروباً صليبية بالغة العنف ضد القوى الإسلامية في شمال إفريقيا وخاض الأتراك معارك بحرية ضد الأساطيل الأوروبية المتحالفة تبادل فيها الطرفان المتحاربان الهزيمة والانتصار، وإن كانت كفة الأتراك العثمانيين هي الراجحة في معظم المعارك[1].

٢ ـ لما نقل الأتراك العثمانيون جبهة القتال إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط، كانوا يحاربون في مناخ صحي أو في منطقة صحية. إذ بينما كانت الجبهة التي فتحها الأتراك العثمانيون في المجر والنمسا وغيرها من بلاد وسط أوروبا جبهة مسيحية لحماً ودماً، وشق العثمانيون طريقهم وسط شعوب مسيحية، كانت الجبهة البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط تضم شعوباً إسلامية تعاونت مع الأتراك العثمانيين في الحرب ضد خصومهم. لقد كان شمال إفريقيا منطقة يدين سكانها بالإسلام، وكانوا يريدون أن يثأروا لإخوانهم في الدين الذين أخرجوا من ديارهم في الأندلس، فكان العثمانيون يحاربون وهم يستندون إلى شعوب موالية لهم في شمال إفريقية وإلى قواعد عسكرية إسلامية تناثرت على الشاطئ الشمالي للقارة الإفريقية[2].

٣ ـ تضافرت عدة عوامل ذاتية ساعدت العثمانيين على التوسع الإقليمي الواسع النطاق في مختلف الجبهات. وكان من بين هذه العوامل: الشعور الديني المتأجج. وكفاية القوات العثمانية، والموارد المالية. كان الشعور الديني الإسلامي المتقد يغمر نفوس الجنود العثمانيين بوجه

---

(١) د/أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٢٠ ــ ٢٥.

(٢) كارل برو كلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٠١ ــ ٤١٠.

خاص، وكان حافزاً قوياً لهم على الاستبسال في القتال واسترخاص الموت، فحققوا بفضل هذا الشعور الفياض أروع الانتصارات. كذلك ساعدت غزارة الموارد المالية السلاطين على بناء قوات مسلحة برية وبحرية على درجة عالية من الكفاية والتسليح والتدريب. فقد كان في استطاعة السلطان أن يجمع الأموال من الولايات العثمانية في يسر وسرعة وأن يستخدمها في دعم القوات الضاربة[1].

٤ ـ أخفق العثمانيون في «عثمنة» أو «تتريك» الشعوب الأوروبية التي دانت لحكمهم. فقد تقوقع العثمانيون اجتماعياً، ولم يحدث انصهار أو امتزاج بينهم وبين الشعوب المحكومة. وبجانب هذه العزلة الاجتماعية، لم يسهموا بنشاط يذكر في الحياة الاقتصادية من زراعة أو صناعة أو تجارة في البلاد التي دانت لحكمهم، واكتفوا بأن أقاموا فيها كطبقة حاكمة، وكانوا أقلية عددية بالنسبة لأصحاب البلاد الأصليين. وكان الاستعلاء سمة بارزة في صفات العثمانيين. وقد أدى الاستعلاء إلى عدم الاختلاط، الذي أدى بدوره إلى عدم نشر اللغة التركية بين تلك الشعوب الأروبية، لأن الدولة العثمانية لم تعمل على توفير الجو الصحي لانتشار اللغة التركية، فظلت الشعوب الأوروبية التي خضعت للعثمانيين محافظة على لغتها وثقافتها وديانتها وعاداتها وتقاليدها وغير ذلك من عناصر حضارتها. ومن هنا، كان الأثر الحضاري للعثمانيين في تلك الشعوب الأوروبية قليلًا للغاية، ومن هنا أيضاً كانت الشعوب الأوروبية لا تدين لهم ثقافياً أو حضارياً[2].

ويعزو بعض المؤرخين والباحثين سلبية العثمانيين في هذا الصدد، إلى أنه لم يكن لهم تراث حضاري متفوق يلقنونه للشعوب الأوروبية التي

---

(١) نفس المرجع.

(٢) د/عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص ٢٢٥ ــ ٢٣٥.

دانت لحكمهم وعلى رأس هؤلاء المؤرخين الأستاذ الانجليزي هربرت فيشر Ficher والأستاذ جوستاف لوبون العالم الفرنسي الشهير. فقد ذكر لوبون في كتابه «حضارة العرب» أن الأتراك العثمانيين قد اكتسبوا أسباب العظمة في ساحات الحرب، وقد ارتعدت فرائص أقوى ملوك أوروبا أحقاباً طويلة فزعاً من سلاطين الدولة العثمانية الذين قاموا مقام القياصرة، وأحلوا الهلال محل الصليب البيزنطي فوق كاتدرائية القديسة صوفيا في القسطنطينية، ولكنهم ـ مع هذا النجاح الذي حققوه ـ أثبتوا عجزهم عن إبداع حضارة[1].

مراحل الفتح العسكري العثماني

قطع العثمانيون في عمليات الغزو العسكري شوطاً طويلًا، بدؤوه من بقعة مغمورة في الشمال الغربي لبلاد الأناضول، وظلوا يطوون هذا الشوط مرحلة بعد مرحلة في دأب متصل وعسكرية صارمة وتحمس غامر للإسلام، يصادفون الهزيمة حيناً والانتصارات الخاطفة أحياناً كثيرة، حتى انتهوا في زحفهم العسكري إلى أسوار فينا في أوروبا، وانتشروا في بقاع آسيا وإفريقيا وأقاموا لهم ملكاً عريضاً اقتطعوه من أوروبا ومن الأناضول ومن العالم الإسلامي. وبذلك خرج العثمانيون من نطاقهم المحلي الصغير المغمور إلى المسرح العالمي العام، وسلطت عليهم الأضواء.

وقد مرت عمليات الفتح العسكري العثماني في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وكانت عمليات الغزو خلالها مقصورة على البلقان في أوروبا، وعلى الأناضول في آسيا. فكانت الدولة العثمانية في هذه المرحلة دولة تلقائية أناضولية، تضم رعايا مسلمين ورعايا مسيحيين. وقد امتدت هذه المرحلة من بدء قيام الإمارة العثمانية في الأناضول حتى وفاة السلطان بايزيد الثاني عام (٩١٨هـ / ١٥١٢م)، وشهدت هذه الفترة

---

(١) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤١١ ــ ٤١٣.

انتقال الدولة العثمانية مرحلياً من مرتبة الإمارة إلى درجة الدولة إلى الامبراطورية، وانتقلت عاصمة الدولة خلال هذه الفترة أيضاً بين الأناضول والبلقان من بروسة إلى أدرنة إلى القسطنطينية.

المرحلة الثانية: اقتصرت عمليات الغزو العسكري على الشرق الإسلامي. وقد حدث هذا التطور في استراتيجية الدولة على عهد السلطان سليم الأول (٩١٨ - ٩٢٧هـ / ١٥١٢ ـ ١٥٢٠م) وأصبحت الدولة العثمانية دولة آسيوية إفريقية بلقانية برز فيها الطابعان الإسلامي والعربي، إذ ضمت لأول مرة عدداً من شعوب الأمة العربية وزادت نسبة الرعايا المسلمين وتولت الدولة زعامة العالم الإسلامي.

المرحلة الثالثة: وفيها اتجهت عمليات الغزو العسكري في القارات الثلاث: أوروبا وآسيا وإفريقيا، وفتحت جبهات بحرية في حوض البحر المتوسط والبحار الشرقية: المحيط الهندي والخليج العربي. وقد بدأت المرحلة الثالثة منذ ارتقاء السلطان سليمان القانوني (أو المشرع) عرش الدولة في عام (٩٢٧ هـ / ١٥٢٠م) واستمرت على عهد خلفائه، وأصبحت الدولة العثمانية في هذه المرحلة دولة أوروبية آسيوية إفريقية[١].

المرحلة الأولى من الفتح العسكري العثماني:

اتجه العثمانيون نحو أوروبا في وقت مبكر عقب نشأة إمارتهم في شمال غربي الأناضول. وكان هذا الاتجاه الأوروبي المبكر الذي هيأ لهم أسباب القوة وزيادة تعدادهم ومواردهم، وساعدهم على توسيع رقعة إمارتهم والنهوض بها مرحلياً إلى دولة فإمبراطورية شاسعة الأرجاء امتدت ممتلكاتها في أوروبا وآسيا وإفريقيا[٢].

---

(١) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ص ٤٣٠ــ ٤٢٠ وانظر كذلك عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص ٣٥ ــ ٤٠.

(٢) محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ص ١٢٠ ــ ١٢١.

ويرى المؤرخ الإنجليزي جيبونز Gibbons في كتابة «تأسيس الامبراطورية العثمانية» The Foundation of the ottomen Empire أن التوفيق حالف العثمانيين في اختيار هذا الاتجاه الأروبي المبكر، لأنه لو قدر لهم أن يتجهوا نحو الشرق ونحو الجنوب في آسيا الصغرى لبدؤوا قواهم في محاربة الإمارات السلجوقية التركية. وهي إمارات قوية للغاية وذات بأس شديد، ولما استطاعوا إنشاء دولة قدر لها أن تغير مجرى التاريخ[1].

وتأسيساً على هذه الحقيقة، يتضح الخطأ الذي علق بأذهان الكثيرين، وهو القول: قد استولوا على شبه جزيرة الأناضول أولًا، ثم دخلوا القسطنطينية فاتحين عام (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) ثانياً، ثم زحفوا على شبه جزيرة البلقان ثالثاً. والحقيقة أن الاستراتيجية العثمانية قامت في المرحلة الأولى على التوسع الإقليمي في اتجاهين مختلفين في وقت واحد:

١ ـ اتجاه نحو أوروبا، وميدانه شبه جزيرة البلقان.

٢ ـ اتجاه نحو آسيا، ورقعته شبه جزيرة الأناضول.

ففي البلقان، كانت فتوحات العثمانيين على حساب ما بقي من أملاك الدولة البيزنطية وعلى حساب دول الصقالبة والإمارات اللاتينية.

وفي الأناضول، كانت فتوحاتهم على حساب البقية الباقية من أملاك الدولة البيزنطية أيضاً والإمارات التركية السلجوقية، وعلى حساب إمارتين مسيحيتين، إحداهما في الشمال هي طرابيزون، والأخرى في الجنوب، وهي كيليكيا.

ولم تكن العمليات الحربية في الجبهتين البلقانية والأناضولية

---

(١) د/أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٣٠.

متتابعتين، بل مضت كلتاهما قدماً في وقت واحد تقريباً، إذ تقدم العثمانيون للفتح في آسيا الصغرى في نفس الوقت الذي تقدموا فيه في البلقان أيضاً. وفي بعض الأحيان كان الفتح في آسيا الصغرى في نفس الوقت الذي تقدموا فيه في البلقان للفتح أيضاً وفي بعض الأحيان كان الفتح في البلقان أسرع منه في الأناضول. وكان بعض السلاطين ينهمك في الجبهة الأناضولية، بينما كان يتفرغ البعض الآخر للجبهة البلقانية. وكان فريق ثالث يوزع نشاطه ووقته بين الجبهتين[1].

ولقد نجح العثمانيون نجاحاً سريعاً وخاطفاً في توسعهم الإقليمي، سواء في الجبهة البلقانية أو الجبهة الأناضولية، وسواء على حساب البيزنطيين أو الشعوب البلقانية أو الإمارات التي كانت قائمة في الأناضول. وأهم العوامل التي ساعدت العثمانيين على الانتصار على البيزنطيين ما يلي:

١ ـ إن العثمانيين الأوائل وجدوا جميع الإمكانيات المادية والمعنوية لفتح الأراضي البيزنطية في الأناضول وتدعيم سلطتهم فيها. وقد وجدوا هذه الإمكانيات في العناصر التركية العثمانية، سواء البدو أو سكان القرى أو المدن على السواء. فقد كانت هذه العناصر تتدفق على غرب الأناضول منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وبينما كانت الإمارات التركية الساحلية آخذة في الضعف بسبب معاركها التي لم تنقطع مع البيزنطيين ومع القوى البحرية اللاتينية، كان العثمانيون يمضون بخطى وئيدة وحاسمة في توسيع رقعة إمارتهم ثم دولتهم ومد حدودها. ولم يبدأ العالم المسيحي ينتبه إلى خطورة العثمانيين إلا بعد أن عبروا البحر واستولوا على غاليبولي[2].

---

(١) كارل برو كلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤١٥.

(٢) محمود شاكر، التاريخ العثماني، ص ٩٧.

٢ ـ وجود أزمة عدم ثقة بين السلطات الحاكمة في كل من الدولة البيزنطية وبلغاريا وبلاد الصرب والمجر، ولذلك تعذر في معظم الأحيان تنسيق الخطط السياسية والعسكرية للوقوف في جبهة واحدة ضد العثمانيين[١].

٣ ـ إن الدولة البيزنطية كانت قد وصلت إلى حالة إعياء شديد. وكان المجتمع البيزنطي قد أصابه تفكك سياسي وانحلال ديني واجتماعي، فسهل على العثمانيين ابتلاع أقاليم هذه الدولة، أو بعبارة أدق بقايا هذه الدولة في الجبهتين البلقانية والأناضولية.

٤ ـ كانت الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية في القسطنطينية قد فقدت سيطرتها على العالم المسيحي الشرقي في البلقان، ولم تستطع هذه الكنيسة أن تحافظ على تماسك العناصر المسيحية الخاضعة لها، إذ كان الفساد قد تطرق إليها وانعكس على سلوك رجاله وبددت جهودها في مناقشات دينية مذهبية عقيمة زادت من الفرقة والتطور بين رعايا الكنيسة. وكان الخلاف الديني المذهبي بين المسيحيين الشرقيين، وهم رعايا كنيسة القسطنطينية، وبين المسيحيين الغربيين، وهم رعايا كنيسة روما، استحكمت حلقاته وترك آثاراً عميقة الجذور في نفوس الفريقين. والواقع أن هذا الخلاف الديني كان من أكبر العوامل التي ساعدت العثمانيين في زحفهم العسكري على البلقان[٢].

٥ ـ كان العثمانيون ـ يتميزون ـ في المواجهة الحربية التي تمت بينهم وبين الشعوب البلقانية ـ بوحدة الصف ووحدة الهدف ووحدة المذهب الديني، وهو المذهب السني، والشعور الديني المتقد والدافق،

---

(١) د. محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، القاهرة ١٩٦٢، ص ٤٥.

(٢) د. عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ط ١، ص ٣٨ ــ ٤٦.

بينما كانت الشعوب البلقانية أشتاتاً وأخلاطاً يمزقها التباغض والتنافس واختلاف المذهب الديني: فمنهم الكاثوليك، ومنهم الأرثوذكس الشرقيون، ومنهم البلغار ومنهم الصرب ومنهم اليونانيون ومنهم سكان الأفلاق والبغدان ومنهم سكان البوسنة والهرسك والجبل الأسود وألبانيا. ويقرر المؤرخ التركي محمد فؤاد كوبريللي في كتابه «قيام الدولة العثمانية» أن غزوات العثمانيين للبلقان قد تمت في سهولة وبغير خسائر كبيرة في الأرواح[1].

ومن جهة أخرى، فقد استطاعت الدولة العثمانية إخضاع سائر الإمارات التركية السلجوقية في الأناضول، على الرغم من أن الدولة العثمانية لم تكن حتى عهد السلطان بيازيد الأول (٧٩٠ - ٨٠٦هـ / ١٣٨٨ - ١٤٠٣م) أقوى الدول الإسلامية في آسيا الصغرى، فقد كان بعض الإمارات التركية السلجوقية أكبر مساحة وأكثر جنداً. ويرجع ذلك إلى عدة عوامل، أهمها ما يلي:

١ - الموقع الجغرافي للإمارة العثمانية عند نشأتها في الشمال الغربي لشبه جزيرة الأناضول، فإن وضعها الجغرافي على حدود الدولة البيزنطية جعلها تحمل عبء الكفاح ضد البيزنطيين ونظرت الإمارات السلجوقية أول الأمر إلى الحرب التي يخوضها العثمانيون ضد البيزنطيين على أنها جهاد ديني، فجذبت هذه الحرب الكثيرين من المحاربين من الإمارات السلجوقية ومن قبائل التركمان، الأمر الذي ساعد على الانتصار في الحروب البيزنطية، وبالتالي أدى إلى توسيع رقعة الإمارة العثمانية وزيادة مواردها.

٢ - لجأ العثمانيون في بسط سيطرتهم على الإمارات التركية السلجوقية إلى بعض الوسائل أو «الحيل»، منها:

---

(١) محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ص ١٢٢ ــ ١٢٣.

أ ـ مصاهرة السلاطين وذويهم الأمراء وحكام هذه الإمارات، وهذه الوسيلة هي نوع من الزاوج السياسي. وكان هذا الزواج يؤدي في النهاية إلى الاندماج ثم الضم. وكانت وحدة العقيدة الدينية عاملا هاماً في تسهيل إتمام الزيجات التي كانت تعتبر بحق صفقات سياسية ناجحة يعقدها السلاطين العثمانيون مع حكام تلك الإمارات. ومن الأمثلة التي تذكر في هذا الصدد استيلاء العثمانيين على مدينة كوتاهية والمنطقة المحيطة بها، وهي ذات موقع استراتيجي هام، حصلوا عليها على عهد السلطان مراد الأول (٧٦٢ - ٧٩٠هـ / ١٣٦٠ ـ ١٣٨٨م) نتيجة تزويج ابنه بايزيد من ابنة أمير ولاية قيرميان[١].

ب ـ عمد العثمانيون إلى شراء أرض ذات مواقع هامة من بعض أمراء الإمارات التركية. ونذكر على سبيل المثال الصفقة التي عقدها السلطان مراد الأول حين اشترى من أمير إمارة حامد أجزاء من إمارته المطلة على إمارات أخرى.

جـ ـ أما الإمارات التي كانت الحرب وسيلة ضمها، فقد بدأ العثمانيون بالإمارات الصغيرة، وتركوا الإمارات السلجوقية الكبيرة التي توقعوا منها مقاومة صلبة إلى الجولات الأخيرة[٢].

المرحلة الثانية من الفتح العسكري العثماني:

عندما ارتقى السلطان سليم الأول (٩١٨ - ٩٢٧هـ/١٥١٢ ـ ١٥٢٠م) العرش العثماني، كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى مفترق الطرق. هل تظل على هذا الوضع وهذا القدر من الاتساع دولة بلقانية أناضولية؟ أو

(١) د/عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق حـ ١، ص ٣٩ ــ ٤٢.

(٢) السيد رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٠١.

تستمر في التوسع الإقليمي في أوروبا؟ أو تتجه نحو المشرق الإسلامي؟

والواقع أن السلطان سليم الأول قد أحدث انقلاباً في الاستراتيجية العسكرية العثمانية فقد توقف في عهده الزحف العثماني نحو الغرب الأروبي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً في قلب المشرق العربي[1].

والمؤرخون يختلفون في تفسير هذه الظاهرة، مما أدى إلى ظهور ثلاث نظريات تحاول كل منها أن تفسر لماذا اتجه السلطان سليم الأول في فتوحاته نحو المشرق العربي، وهذه النظريات الثلاث هي:

١ ـ نظرية التشبع العسكري العثماني في أوروبا، إذ يرى أصحاب هذه النظرية أن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر، وأنه كان عليها في أوائل القرن السادس عشر أن تبحث عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع.

والحق أن الفتوحات العثمانية لم تنقطع تماماً في الجبهة الغربية، ولكن لا ريب في أن مركز الثقل في التوسع العثماني قد انتقل نهائياً من الغرب إلى الشرق منذ أوائل القرن السادس عشر، حتى أنه يمكن القول بأن موقف الدولة العثمانية في الجبهة الغربية كان موقفاً دفاعياً أكثر منه هجومياً. وهذا الرأي يتفق مع المنطق التاريخي، فلكل دولة مدى معين في التوسع، ودولة مركزها الآستانة (استانبول) من المعقول أن يقف مداها عند المجر.

٢ ـ نظرية النزاع الصفوي العثماني، ويرى أصحاب هذه النظرية أن سياسة الدولة الصفوية في إيران والمتعلقة بمحاولة بسط المذهب الشيعي في العراق وآسيا الصغرى، هي التي دفعت الدولة العثمانية

(١) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت ١٩٦٥، ص ٤٢ ــ ٦٠.

إلى الخروج إلى المشرق العربي لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة[1].

فقد حدث أن قامت في إيران الأسرة الصفوية، وتزعم الشاه إسماعيل الصفوي (٩٠٦-٩٣١هـ / ١٥٠٠-١٥٢٤م) حركة قومية دينية، عملت على توحيد إيران والتمكين للمذهب الشيعي في البلاد المجاورة والمتاخمة لها، وغزا العراق عام (٩١٤هـ / ١٥٠٨م) لأنه يضم مقابر أئمة الشيعة في كربلاء والنجف، وهي التي يطلق عليها المزارات أو العتبات المقدسة. وأخذ إسماعيل الصفوي يعمل على إثارة العثمانيين بطرق شتى، فأصبحت إيران ملجأ الفارّين من وجه السلاطين العثمانيين. كذلك أخذ الصفويون يبثون دعوتهم الشيعية في الأناضول معتمدين على الأقليات الشيعية المنتشرة هناك للقيام بثورة ضد الحكم العثماني السني. وثار الشيعة بالفعل في السنة الأخيرة لحكم السلطان بايزيد الثاني ولكن السلطان سليم أخمد الفتنة، وشرع في تنفيذ سياسة الاضطهاد ضد الشيعة المقيمين في الدولة العثمانية، ففرقهم في الولايات العثمانية الأروبية. ورد إسماعيل الصفوي على ذلك بإقامة مذابح عامة ضد السنة في بلاده. وتطورت المذابح إلى حرب سافرة بين الدولة العثمانية السنية وبين الدولة الصفوية الشيعية. وانتصر سليم في موقعة جالديران عام (٩٢٠هـ / ١٥١٤م) ودخل تبريز عاصمة إيران وقتذاك، ثم استولى على أذربيجان وأخضع كردستان وديار بكر وماردين وشمال العراق، وعاد إلى بلاده.

غير أن الموقف العسكري بعد معركة جالديران ظل مائعاً أو راكداً، فهو لم يؤد إلى انهيار إحدى الدولتين العثمانية أو الصفوية،

---

(١) د/محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ٩٩ ــ ١٠٠.

كما اتضح أن سقوط إحداهما سقوطاً مباشراً أمر متعذر، وأن الموقف يتطلب محاصرة العدو بالاستيلاء على البلاد المحيطة بها. ومن هنا، فإن استيلاء العثمانيين على بلاد الشام ومصر، لم يكن سوى حلقة من حلقات الصراع بين الدولتين الصفوية والعثمانية[1].

٣ ـ نظرية النزاع البرتغالي العثماني، ويرى أصحاب هذه النظرية أن العثمانيين قد اتجهوا في فتوحاتهم نحو المشرق العربي لحمايته من الخطر الأوروبي أو البرتغالي الذي كان قد بدأ يظهر حول المنافذ البحرية للمشرق العربي، وحاول أن ينفذ من مضيق باب المندب إلى البحر الأحمر بالتحالف مع حكام الحبشة المسيحيين[2].

تلك هي النظريات الثلاث التي تحاول تفسير اتجاه الفتوحات العثمانية نحو المشرق العربي في مطلع القرن السادس عشر. ونلاحظ أن النظرية الأولى تفسر هذا الاتجاه من زاوية الأحداث المحلية المحيطة بالمشرق العربي. أما النظرية الثالثة فتفسر الاتجاه العثماني الجديد من زاوية الأحداث العالمية التي أخذت بدورها تؤثر في مناطق الشرق الأوسط.

ورغم تعصب كل فريق من المؤرخين لرأيه أو نظريته، فإننا لا نرى ما يمنع من أن تكون هذه العوامل جميعها مسؤولة مسؤولية مشتركة عن الاتجاه الشرقي للدولة العثمانية. وعلى كل حال، فإن السلطان سليم الأول عاد إلى بلاده بعد أن تجاوزت الاستيلاءات العثمانية الجديدة مع حدود دولة المماليك بشرق الشام وغرب الفرات، وهما منطقتان هامتان لدولة المماليك لاعتبارات سياسية واقتصادية[3].

---

(١) د/أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٧٦ ــ ٨٤.

(٢) د. محمد أنيس، د/السيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة ١٩٦٧، ص ٣٥ ــ ٤٠.

(٣) د/السيد رجب حراز، المدخل إلى العالم العربي الحديث، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٣ ــ ١٤.

والحقيقة أن أسباب النزاع كانت قد توفرت بين الدولة العثمانية وبين دولة المماليك التي كانت تحكم وقتذاك مصر والشام ولها سيادة على إقليم الحجاز. وأهم هذه الأسباب هي:

١ ـ الخلاف على تخطيط الحدود بين الدولتين في طرسوس في المنطقة الواقعة بين الطرف الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى وبين شمالي الشام. فقد تناثرت في هذه المنطقة إمارات وقبائل تأرجحت في ولائها بين الدولة العثمانية ودولة المماليك. وكان هذا التأرجح مبعث اضطراب في العلاقات بين الدولتين ومصدر نزاع مستمر. وأراد السلطان سليم الأول بادئ ذي بدء أن يحسم مسألة الحدود بالسيطرة تماماً على منطقتها وسكانها.

٢ ـ إن السلطان قانصوه الغوري (٩٠٧ - ٩٢٢هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦م) سلطان دولة المماليك آوى إليه بعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم (وعلى رأسهم الأمير أحمد أخ السلطان سليم) وأراد الغوري أن يتخذ من وجود هؤلاء الأمراء لديه أداة لإثارة مزيد من المتاعب في وجه السلطان سليم.

٣ ـ السياسة التي اتبعها السلطان الغوري في أثناء الحرب التي قامت بين السلطان سليم وبين الشاه إسماعيل الصفوي. فقد وقف الغوري موقفاً غير ودي من العثمانيين دون أن يفيد هذا الموقف الشاه إسماعيل على الإطلاق، فهو لم يلتزم الحيدة التامة بين العثمانيين والصفويين، وهو لم يتخذ موقفاً عدائياً صريحاً من السلطان سليم. وكان في استطاعته لو اتخذ الموقف العدائي أن يتقدم لمساعدة الصفويين وقت توغل الجيش العثماني في الأراضي الفارسية، وكان في استطاعته أن يتقدم في أراضي الدولة العثمانية والجيش العثماني بعيد عنها، وتكون النتيجة أن هذا الجيش يعجز عن الدفاع عن بلاده

وعن الإغارة على فارس. ولكن لم يحدث شيء من هذه الخطط العسكرية، واكتفى السلطان الغوري بتأييد شكلي بذله للشاه إسماعيل بأن منع هدايا كانت مرسلة من الهند إلى الآستانة[1].

ولهذه الأسباب، لم تلبث أن استعرت الحرب بين الدولتين العثمانية والمملوكية واستطاع العثمانيون إنزال هزيمة ساحقة بالجيش المملوكي في معركة مرج دابق شمالي حلب في ٢٤ أغسطس عام ١٥١٦م (٩٢٢هـ)، وسقط السلطان الغوري صريعاً من على حصانه من صدمة الهزيمة وضاعت جثته بين آلاف الجثث.

ولما رأى السلطان سليم عمق الهزيمة التي أنزلها بالمماليك، وسع نطاق الحرب وتساقطت تباعاً في يده وفي غير عناء المدن الكبرى في الشام: حلب وحماه وحمص ودمشق التي أقام بها قرابة شهرين تسابق خلالهما الأمراء والأعيان إلى السلطان يعلنون ولاءهم للحكم الجديد. وتشجع سليم الأول على غزو مصر بعد غزو الشام، وواصل زحفه جنوباً حتى بلغ مصر. وكان الأمراء المماليك في مصر قد اختاروا طومان باي سلطاناً للدولة المملوكية، واستعد لمواصلة الكفاح. والتحم الجيشان العثماني والمملوكي في موقعة الريدانية في ٢٣ يناير ١٥١٧م (٩٢٣هـ) واشترك فيها السلطان سليم وطومان باي. وكانت الخسائر من الجانبين فادحة. وقد لقي المماليك الهزيمة، ودخل العثمانيون القاهرة وقبضوا على السلطان طومانباي، وتم شنقه في ٢٣ إبريل ١٥١٧م (٩٢٣هـ) عند باب زويلة، وطويت دولة المماليك ودخلت الشام ومصر في نطاق الممتلكات العثمانية[2].

وفي أثناء إقامة السلطان سليم الأول في مصر ـ وقد امتدت ما

---

(١) إسماعيل شرهنك، تاريخ الدولة العثمانية ص ٧٠ ــ ٧٤.

(٢) د. عمر عبد العزيز عمر، الشرق العربي المعاصر، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ٢٥ ــ ٣٠.

يقرب من تسعة أشهر ـ دخل إقليم الحجاز دخولاً سلمياً تحت السيادة العثمانية، إذ رأى الشريف بركات شريف مكة أن يتحول بولائه إلى العثمانيين. وكان إقليم الحجاز تحت السيادة الاسمية لدولة المماليك. وكانت مصر ترسل كل عام الأموال والغلال لفقراء مكة والمدينة والمرتبات والهدايا لأشراف الحجاز. ولما دخل السلطان سليم القاهرة، وجد بها بعض القضاة ورجال العلم من الحجاز كان الغوري قد اعتقلهم، فأطلق سليم سراحهم. وأشاروا عليه بأن يكتب إلى شريف مكة الشريف بركات يدعوه إلى الدخول في طاعة العثمانيين. واستجاب بركات للدعوة التي تلقاها من السلطان سليم وأرسل ابنه إلى القاهرة يحمل للسلطان التهاني ومفاتيح الحرمين الشريفين. وقد أكرم وفادة الابن وأعطاه تفويضاً بحكم والده. وقرئ التفويض في مكة المكرمة وخطب باسم سليم، واحتفظت الدولة العثمانية بنظام الشرافة كما كان في أيام دولة المماليك[1].

ولقد ترتب على بسط السيادة العثمانية على إقليم الحجاز، ظهور العثمانيين في البحر الأحمر ومحاولتهم استكمال سيطرتهم عليه بالاستيلاء على اليمن وإنقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالي الزاحف عليه من المحيط الهندي، بعد أن أصبحت لهم ممتلكات تقع على شاطئه، فأصبح الدفاع عن هذه الممتلكات واجباً تفرضه كرامة الدولة ومصلحتها[2].

وعلى العموم، فمن الثابت أن الجبهة العسكرية العريضة التي فتحها السلطان سليم الأول في الشرق الإسلامي قد أسفرت عن نتائج هامة نذكر منها:

١ ـ إن حكم السلطان سليم الأول وقد امتد ثماني سنوات

---

(١) د/عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية حـ ١، ص ٢٠ ــ ٢١.

(٢) د/عبد الرحيم عبد الرحمن، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، القاهرة ١٩٨٣، ص ٢١.

(٩١٨ - ٩٢٧هـ / ١٥١٢ ـ ١٥٢٠م) لم يشهد إرسال حملة عسكرية إلى أوروبا. وكانت علاقته بالحكام المسيحيين في البلقان، والذين يدينون له بالولاء والطاعة، تتسم بالطابع السلمي.

٢ ـ اكتسبت الدولة العثمانية صبغة عربية لم تكن لها من قبل، وبرزت فيها الصبغة الإسلامية، وزاد عدد رعاياها المسلمين زيادة كبيرة جداً بدخول سكان الشام ومصر والحجاز في نطاق الدولة العثمانية. وبعد أن كانت الدولة عندما تولى سليم عرشها دولة بلقانية أناضولية، أصبحت عند وفاته دولة آسيوية إفريقية بلقانية. وقد زادت مساحة الدولة على عهده إلى ضعف ما كانت عليه قبل أن يرتقي عرشها.

٣ ـ ورثت الدولة العثمانية تركة مثقلة هي تركة دولة المماليك ومشكلاتها وكان أهمها مسألة تحويل طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح، والانهيار الاقتصادي الذي حدث في المنطقة العربية نتيجة هذا التحول، والتفوق البرتغالي الساحق في منطقة الخليج العربي، ومواجهة الخطر البرتغالي في البحر الأحمر الذي كان قد استفحل شره بعد تحالف الحبشة مع البرتغال[1].

المرحلة الثالثة من الفتح العثماني:

تبدأ هذه المرحلة منذ ارتقاء السلطان سليمان القانوني عرش الدولة العثمانية عام (٩٢٧هـ / ١٥٢٠م) وتستمر على عهد خلفائه. وفي هذه المرحلة اتجهت الدولة العثمانية في عملياتها الحربية نحو أوروبا وآسيا وإفريقيا. وبرز في هذه العمليات النشاط الحربي البحري، فكان للدولة نشاط واضح، سواء في البحر المتوسط، حيث استولت على عدة جزر منها

(١) د/السيد رجب حراز، المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث، ص ٢٣ ــ ٢٤.

رودس وقبرص وكريت، وعلى امتداد الشاطئ الشمالي لإفريقيا، وسواء في المحيط الهندي في محاولة لضرب البرتغاليين بعد أن استفحل خطرهم في المياه الشرقية، وبعد أن شنوا حرباً عنيفة على التجارة العربية وعملوا على خنق العرب في مياههم الداخلية[١].

وفيما يتعلق بالنشاط الحربي في الجبهتين الآسيوية والإفريقية، نجح السلطان سليمان القانوني في انتزاع العراق كله من أيدي الصفويين في فارس عام (٩٤١هـ / ١٥٣٤م)، ووجه اهتمامه لتوطيد دعائم الحكم العثماني في اليمن، فأرسل عام (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) حملة سليمان باشا الخادم وكانت هذه الحملة تتكون من ثمانين سفينة، تم بناؤها في مصر، وأبحرت من السويس وكانت أول حملة عثمانية رئيسية إلى اليمن، وتمثل بداية الجهود المضنية والتضحيات الدامية التي بذلتها الدولة العثمانية في اليمن. وكان استيلاء العثمانيين على عدن أهم نتائج هذه الحملة[٢].

وكان للعثمانيين على عهد السلطان سليمان نشاط بحري في منطقة الخليج العربي، واتصل العثمانيون بالإمارات العربية هناك مثل عمان والإحساء والبحرين والكويت. ومع ذلك، فقد فشل العثمانيون في تحطيم قوة البرتغاليين في البحار الشرقية، ولذلك تخلوا بعد عام (٩٦٢هـ / ١٥٥٤م) عن سياسة محاربة البرتغاليين في المحيط الهندي. وتحدد دور اليمن في سياسة العثمانيين ابتداء من عام (٩٦٢هـ / ١٥٥٤م) باتخاذه قاعدة عسكرية للدفاع عن البحر الأحمر الذي جُعل بحراً إسلامياً مغلقاً يحرم على السفن غير الإسلامية الإبحار فيه[٣].

---

(١) الميرالاي إسماعيل سرهنك، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٧٥ ــ ٨٠.

(٢) د/أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٩٠ ــ ٩٢.

(٣) د/عبد الكريم غرايبة، مقدمة في تاريخ العرب الحديث، دمشق ١٩٦٠، ص ٣٥ ــ ٤٠.

وأرسل السلطان سليمان عام (٩٦٣هـ / ١٥٥٧م) جيشاً عثمانياً إلى سواكن ومصوع، واستولى عليهما منتهزاً فرصة اندلاع حرب أهلية في الحبشة. وبسط العثمانيون نفوذهم على الشاطئ الشرقي لإفريقيا، ولكنهم لم يتوغلوا في داخل القارة الإفريقية[١].

(١) د/رأفت الشيخ، في تاريخ العرب الحديث، القاهرة ١٩٨٩، ص ٢٦.